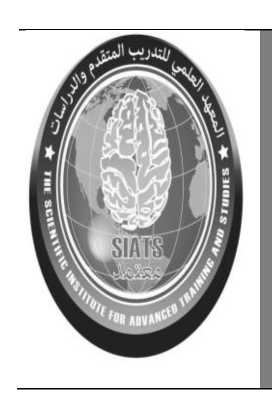


SIATS Journals

Journal of Islamic Studies and Thought for Specialized Researches

(JISTSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk



مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية

العدد 2، المجلد 1، تموز، يوليو 2015م.

e-ISSN: 2289-9065

THE VOCABULARY OF RAIN IN THE LIGHT OF QURANIC SYSTEMS AND EXPERIMENTAL SCIENCE

مفردات المطر فى ضوء النظم القرآني والعلم التجريبي

الدكتور محمد ويدوس سيمبو

جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

widus81@usim.edu.my

1436هـ – 2015م



ARTICLE INFO

Article history:
Received 11/5/2015
Received in revised form 20/6/2015
Accepted 1/7/2015
Available online 15/7/2015

Keywords:
Insert keywords for your paper

ABSTRACT

The rain in the holy Quran has many vocabularies. Every one of them has a different meaning according to the structure and context. Among of them comes in the real sentence, and others in the metaphorical expression.

The researcher tries to strengthen the reality of the rain by focusing on the deeply meaning of the systematic structure of the rain verses.

Furthermore, the researcher focuses on the roles of the systematic structure of the rain verses to deny the illusions (*syubuhat*) of earlier scholars about whole things related to the rain, saying an irrelevant thing, affected by myths and beyond of reality.



الملخص

إن للمطر في القرآن مفردات عديدة، يختلف معنى البعض عن الآخر لاختلاف البنية والسياق. فمنها ما جاء على سبيل الحقيقة، كالمطر نفسه وغيره من الألفاظ، ومنها ما جاء على سبيل المجاز. والباحث يحاول قدر استطاعة أن يجلى حقيقة المطر، وذلك بالوقوف على ما دل عليه نظم آياته من دقائق المعنى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الباحث يتعرض لما انتهى إليه العلم التجريبي من تقارير فى شأن المطر، ويختار منها ما هو الأنسب والأوفق لمقتضى معانى النظم الكريم، كما أنه يصحح بعض المفاهيم التي تتعارض وفخامة معانى نظم آيات المطر.



التمهيد:

مما عليه أكثر أهل البيان أن الإعجاز القرآني يتجلى من نظمه، وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم[1]، وهو الذي أنيط به التحدي من أن يأتي بمثله الإنس والجن، إلا أنهم بهتوا واستسلموا أبد الآبدين. والنظم التنزيلي له وجوه عديدة، البعض منها أظهر، والأخر أدق وأغمض، ولهذا قيض الله تعالى له رجالاً موفقين كتبوا فيه نفائس المؤلفات، ومن أشهرهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، وشيخ الإسلام أبو السعود في تفسيره الموسوم بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، والإمام البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وغيرهم.

وللنظم الكريم ثمرات جليلة، فمن أمعن النظر فيها نظرًا تدبريًا يستطيع نقد الروايات بالمأثور، ودفع ما يوهم التعارض بين الآيات، وبيان الآيات المجملة، ومعرفة المراد من المبهمات، وترجيح المحتملات التفسيرية، وتوجيه التكرار والتشابه اللفظى من آيات التنزيل، وتحقيق نسبة القول إلى قائله[2].

وعلى الرغم من كثرة فوائده كما رأيت، إلا أن الكل ينساق في المقام الأول إلى غاية واحدة، وهي حمل النظم القرآني على أفخر المعاني التنزيلية وأجزلها.

وهذا البحث إن هو إلا محاولة أخرى للوقوف على نظم آيات المطر في التنزيل الحكيم، وتصحيح بعض المفاهيم التي تتعارض وفخامة معاني نظم آيات المطر، ووزن ما انتهى إليه تقرير العلوم الكونية الحديثة في ذلك بميزان نظم آيات المطر، واختيار الأنسب والأوفق منه لمقتضى معاني النظم الكريم.

---

[1] النورسي، **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، ص22.

[2] وقد تناولنا أثر نظم القرآن في معالجة القضايا التفسيرية هذه في رسالة علمية معنونة ب"أثر نظم القرآن في تفسير شيخ الإسلام أبي السعود (من أول سورة المائدة إلى آخر سورة الأنعام). وذلك في مرحلة الدكتوراه بجامعة الأزهر الشريف.



المبحث الأول

النظم لغة واصطلاحًا

قال صاحب القاموس وشارحه –طيب الله ثراهما–: "النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، وكل شيء قرنته بآخر فقد نظمته. (و) النظم: (المنظوم) وصف بالمصدر، يقال نظم من لؤلؤ وخرز. (و) النظم: (الجماعة من الجراد). يقال جاءنا نظم من الجراد، وهو الكثير. (و) النظم: (الثريا) على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ. ونظم اللؤلؤ ينظمه نظمًا ونظامًا، بالكسر، ونظمه تنظيمًا: ألفه وجمعه في سلك فانتظم وتنظم، ومنه: نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وله نظم حسن، ودر منظوم ومنظم. وانتظمه بالرمح: اختله، وانتظم ساقيه وجانبيه، كما قالوا: اختل فؤاده، أي: ضمهما بالسنان.

والنظام: كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه، جمع بنُظم (ككتب، و) من المجاز النظام: ملاك الأمر، تقول: ليس لهذا الأمر من نظام، إذا لم تستقم طريقته (جمع بأنظمة، وأناظيم، ونظم). وأيضًا: السيرة، والهدي، والعادة، يقال: ما زال على نظام واحد، أي: عادة، وليس لأمرهم نظام، أي ليس له هدي ولا متعلق ولا استقامة"[3].

وقال الشارح استدراكًا على صاحب القاموس: "ومما يستدرك عليه: الانتظام: الاتساق، وتناظمت الصخور: تلاصقت، ونظم الحبل: شلّه، ونظم الخَوَّاص المقْلُ[4]: ضفره، وتنظم الكلام وانتظمه، وهذان البيتان ينتظمهما معنى واحد، ورجل نَظَّام، ونِظِّيم: كثير نظم الشعر، ونظم القرآن: لفظه، وهي العبارة التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة". أ هـ بتصرف[5].

وقد أظهر صاحب القاموس وشارحه أن كل منظوم لا يقال: إنه نظم إلا إذا توفر فيه معنى الجمع والكثرة، فلا يقال لأمر واحد: إنه نظم أو هو منظوم.

---

[3] مرتضى الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج33، ص496-498. بتصرف.

[4] المقْل المكِّي: ثمر شجر الدوم، ينضج ويؤكل، خشن، قابض، بارد، مقو للمعدة. كذا في القاموس. وقال المرتضى الزبيدي: "هو الشبيه بالنخلة في حالاتها". انظر: الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج4، ص51؛ ومرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، ج30، ص414.

[5] مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، ج33، ص499.



كما لا يقال إنه منه إلا إذا أفاد معنى الضم والتنسيق المستتبع منه معنى الصلابة والاستقامة، فلا يقال لأمرين أو أكثر: إنه نظمهما أو هما منظومان، إلا إذا رتبا على نسق معين مستقيم وضعهما، فلا يقال إذن لأمر عشوائي: إنه نظم أو منظوم.

هذا معنى النظم لغة. أما في الاصطلاح فقد عرفه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[6].

ويقرب من هذا التعريف قول الجرجاني: "النظم هو تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل"[7].

والظاهر من إفادة صاحبي الدلائل والتعريفات أن الجزء الأصغر من النظم هو تأليف الكلمة وضمها إلى أخرى، فلا يقال: إنه من النظم ما جرى في ضم حروف المباني المكونة للكلمة وترتيبها مثل الضاد والراء والباء من كلمة "ضرب"، كما لا يقال: إنه منه ما تبع ذلك الضم والترتيب من التشديد والغنة والمد والحركات؛ فإن ترتيب هذه الأشياء لا يدخل في مصطلح النظم.

وعلل البعض هذا الحكم فقال: "إن النظم الذي نتحدث عنه يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، ولا كذلك نظم الحروف؛ إذ المعتبر في النظم ضم لفظة مع أخرى المترتب عليه حسن الدلالة، ولا شك أن هذه الحالة غير موجودة البتة في نظم الحروف، هذا من جانب، والآخر أنه لو كان النظم يقصد به إلى اللفظ نفسه بحيث يصبح توالي الألفاظ في النطق نظمًا على نسق نظم الحروف لوجب ألا يختلف حال الاثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه؛ لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسًا واحدًا، ولا يعرف أحدهما من ذلك شيئًا يجهله الآخر"[8] بتصرف.

هذا الحكم يصدق على كل نظم من كلام البشر سوى القرآن. أما نظم القرآن الكريم فليس على هذا النحو؛ إذ أقر العلماء على أن ترتيب حروف القرآن هو نظم بعينه عجز عنه الخلق في الإتيان بمثله؛ لأن القرآن معجز أيضًا بنغم ألفاظه، وأصوات الحروف المكونة للمفردة المتصفة بالرخوة، والشدة، والهمس، والجهر، وما تشتمله من المعاني المدلولة المتسقة مع تلك الأصوات والأنغام.

---

[6] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص4.

[7] الجرجاني، **التعريفات**، ص361.

[8] الخولي، **مكان النحو من نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني**، ص79.



قال الشيخ الزرقاني، وهو يتحدث عن خصائص أسلوب القرآن: "الخاصة الأولى مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقًا عجيبًا، وائتلافًا رائعًا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور"[9].

وقريب من هذا البيان مقولة الدكتور محمود السيد شيحون عند حديثه عن مظاهر إعجاز نظم القرآن، حيث يقول: "المظهر الثاني المفردة القرآنية. إذا تأملت في الكلمات التي تتألف منها الجمل القرآنية رأيتها تمتاز بمميزات ثلاث رئيسة، هي: جمال وقعها في السمع، واتساقها الكامل مع المعنى، واتساع دلالتها، لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات"[10].

والظاهر من جملة النقول أن تأليف حروف المباني المكونة لمفردة من المفردات القرآنية هو بعينه نظم؛ إذ يترتب عليه النظام الصوتي البديع الدال على معنى، وذلك بالضرورة عند تركيبها في الجمل القرآنية.

فنظم القرآن إذن هو تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وآياته، وسوره، وموضوعاته التي يشتمل عليها المصحف الجليل من حيث اللفظ والمعنى، وهو وجه من وجوه إعجازه. والله أعلم.

المبحث الثاني

نظم ألفاظ وكلمات القرآن الكريم

المطر والألفاظ المعبرة عنه ورد بها القرآن العزيز في أكثر من موطن، ولهذا، كان من الأولى بادئ ذى بدء أن يقف القارئ الكريم على كيفية النظم الجليل في اختيار ألفاظه وكلماته ووضعها داخل منظومة المعنى التنزيلي.

من المعلوم بداهة، أن القرآن الكريم بلغ في نظم ألفاظه وكلماته غاية في الدقة، وهو أجل من أن يضاهيه أي كلام بشري مهما بلغ الغاية القصوى من البلاغة، حتى ولو كان ذلك من عند الرسول ﷺ؛ إذ المتأمل في كل منهما على حدة يرى الفرق بينهما في الفصاحة والبيان كالفرق بين الثرى والثريا، كما يرى أن للقرآن في نظم ألفاظه رسومًا كثيرة، فكان يختار رسمًا دون رسم قصدًا لأمر يتوخاه المقام، فتجد فيه حينًا زيادة في أصل بنية الكلمة، وفي حين آخر تجد فيه الحذف، ضرورة أنه كلما زاد اللفظ زاد المعنى.

---

[9] الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ج2، ص244.

[10] شيحون، **الإعجاز في نظم القرآن**، ص77.



انظر إلى قول الله ﷻ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:94]. قال جار الله الزمخشري: "والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جنهم ينكُب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها"[11]. وقال أيضًا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف:80] ﴿اسْتَيْأَسُوا﴾ أي يئسوا، وزيادة السين والتاء في المبالغة، نحو ما مر في استعصم[12]"[13].

هذا في الزيادة، أما في الحذف فإنه لا توجد في القرآن الكريم كلمة محذوفة إلا لغرض، ومن أمثلة ذلك: إنه يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه، وإن زمنه أقصر ونحو ذلك، فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث.

أو يحذف منه في مقام الإيجاز والاختصار بخلاف مقام الإطالة والتفصيل، فإذا كان المقام مقام إيجاز أوجز في ذكر الفعل فاقتطع منه، وإذا كان في مقام التفصيل لم يقتطع من الفعل، بل ذكره بأوفى صورة.

ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:97]، وذلك في السد الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب. ولما كان الصعود على هذا السد أيسر من إحداث ثقب فيه لمرور الجيش فحذف من الحدث الخفيف، فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾، بخلاف الفعل الشاق الطويل، فإنه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، فخفف بالحذف من الفعل بخلاف الفعل الشاق الطويل.

ثم إنه لما كان الصعود على السد يتطلب زمنًا أقصر من إحداث الثقب فيه حذف من الفعل وقصر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث". كذا منقول بتصرف عن السامرائى في بلاغة الكلمة[14].

هذا، ولألفاظ القرآن رسوم أخرى غير التي تم بسطها، مما يطول ذكرها ويصعب إلمامها في بحث قصير مثل هذا، وتلخيصًا لجوانب موضوعنا هذا وجمعًا لشعبه أتيناك أيها القارئ الكريم بأقوال بعض العلماء كما يلي: قال بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله في المكتوب التاسع عشر: "إن كلمات القرآن الكريم وجمله ينظر بعضها إلى البعض

---

[11] الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ج4، ص400.

[12] قال العلامة الزمخشري عند تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:32]، "جيء به مبالغة في الدلالة على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، وهو بيان لما كان من يوسف عليه لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهم والبرهان". انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج3، ص280.

[13] الزمخشرى، **المصدر نفسه**، ج3، ص312.

[14] السامرائى، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، ص9-11.



الآخر، فتتواجه وتتناظر الكلمات والجمل، فقد تكون كلمة واحدة متوجهة إلى عشرة مواضع، وعندها تجد فيها عشر نكات بلاغية، وعشر علاقات تربطها مع الكلمات الأخرى"[15].

وفي كتيبه (المعجزات القرآنية) يقول: "إن جزالة نظم القرآن الخارقة وتناسقه نابعة من نظم ألفاظه وكلماته المتعانقة لكل جملة، والتي لا يصلح مكانها غيرها؛ فإن الكل منها له من الكلام نصيب يمد به المقصد"[16].

وللدكتور محمد عبد الله دراز في هذا المقام كلام نفيس أيضًا، حيث يقول: "لا شك أنك إذا نظرت إلى القرآن حيث شئت، تجد بيانًا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية؛ نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه، ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته، سر الحياة الذي ينتظم بأداته. وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: محاسن متوالية وبدائع تترا"[17].

ضعْ يدك حيث شئت من المصحف، وعدّ ما أحصته كفك من الكلمات عدًا، ثم أحصِ عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجًا عن الدفتين[18]، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية: "لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لن توجد"[19]؛ بل هو كما وصفه الله ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1]"[20] بتصرف يسير.

وزاد عليه البعض فقال: "إن اصطفاء الألفاظ أسماءً كانت أو أفعالاً أو حروفًا يفضي إلى كون هذه الكلمة المصطفاة صافية نقية من حوشي[21] اللفظ أو مستكرهه، ثم هي عينها ذات جرس وإيقاع يلتئمان مع المعنى المعبر عنه، ويبرزانه ويشكلان جزءًا من مضمونه، وهي في الوقت ذاته لفظة موحية ذات ظلال وارفة تقود إلى معان كثيرة في ظل المعنى

---

[15] النورسي، **المكتوبات**، ج2، ص228.

[16] النورسي، **المعجزات القرآنية**، ص20.

[17] الباقلاني، **إعجاز القرآن**، ص192.

[18] أي دفتي المصحف الجليل.

[19] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج1، ص52؛ والسيوطي، **الإتقان في علوم القرآن** (النوع الرابع والستون: في إعجاز القرآن)، ج2، ص467.

[20] دراز، **النبأ العظيم**، ص111-112.

[21] الحُوْشِيّ: الوحشي، وحوشي الكلام وحشيه وغريبه، ويقال: فلان يتتبع حوشي الكلام، ووحشي الكلام، وعقمي الكلام بمعنى واحد، وفي حديث عمر: "ولم يتتبع حوشي الكلام"، أي وحشيه والغريب المشكل منه. انظر: ابن منظور، **لسان العرب** (حوش)، ج12، ص1049.



الخاص. وهذه الفكرة هي مقتضى فكرة النظم القرآني الذي تتضافر فيه ألفاظه ومعانيه وظلاله وإيحاءاته لترسم المعنى المراد وتدل عليه"[22].

قلت: هذه النقول على الرغم من كثرتها؛ إلا أن بيان كل منها يكاد ينساق في المقام الأول إلى أن ألفاظ وكلمات القرآن تعد مفتاحًا لكنوز دقائق المعاني ولطائفها، غير أن معرفة ذلك يستوجب من كل قارئ للنظم الشريف أن يمعن النظر إمعانًا تدبريًا في رسوم ألفاظه وكلماته، كلّ على حدة، حتى ينكشف له أدق المعاني التنزيلية وأفخرها. والله أعلم.

المبحث الثالث

الألفاظ المعبرة عن المطر في النظم القرآني

بعد أن وقفت على دقة القرآن في اختيار ألفاظه، تأخذ بك أيها القارئ الكريم جولة أخرى للوقوف على الألفاظ المعبرة عن المطر في القرآن.

وقد استوعب على تلك الألفاظ الأستاذ الدكتور محيسن ختلان البكري في بحثه، حيث يرى أن البعض منها كانت دلالاته على المطر عن طريق الحقيقة، والآخر عن طريق المجاز.

ففي الحقيقة ثمانية ألفاظ: المطر، الغيث، الصيّب، الوابل، الطل، الودق، الماء، الحسبان.

وفي المجاز أربعة ألفاظ: السماء، الرزق، الرحمة، والرجع.

ولنشرع الآن في بيان كل واحد منها على حدة، فعن طريق الحقيقة:

المطر: هو الماء المنسكب من السحاب[23]. والميم، والطاء، والراء أصل يدل على معنيين: أولهما: الغيث النازل من السماء، وثانيهما: جنس من العدو[24].

وكان أكثر العلماء والدارسين لا يفرقون بين "المطر" و"الغيث"، فكانوا يضعونهما في سلة واحدة، وكأنهما مترادفان، والحقيقة أن لكل لفظ معنى خاصا به، وقد تنبه إلى هذا الجاحظ حيث قال: "وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛

---

[22] ناصر الحنين، **النظم القرآني في آيات الجهاد**، ص35.

[23] ابن منظور، **لسان العرب**، ج46، ص4223.

[24] ابن دريد، **جمهرة اللغة**، ج2، ص 760.



لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث"[25].

ودليل ما ذهب إليه الجاحظ قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:74]، والسجيل طين متحجر. وقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:58]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان:40]، والقوم الذين آخذهم الله بالعذاب والانتقام هم قوم لوط عليه السلام في قريتهم سدوم[26].

بعد أن تكشفت لنا حقيقة كلمة المطر في النظم التنزيلي، نقول أن للمطر معنيين: الأول منهما حقيقي وهو ما شاع في كلام أكثر الخاصة والعامة، والثاني مجازي، وهو ما اقتصر عليه التعبير القرآني؛ إذ لا تجد القرآن يلفظ بالمطر إلا في موضع الانتقام والعذاب كما مر.

الغيث: وهو في اللغة الإصابة، وأغاث الغيث الأرض، أي أصابها بالمطر، وهو الماء المنزل من السحاب إلى الأرض، وربما سمي السحاب غيثًا[27]؛ لأنه يغيث الأرض بالنبات والكلأ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:49].

وقد ورد "الغيث" في أكثر من موضع في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى:28]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان:34]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد:20].

ففي الآخير شبه ترف الحياة الدنيا وزينتها والتفاخر بالأموال والأولاد بغيث أو مطر، أعجب الزراع النبات الذي نما وأينع من جراء هذا الغيث، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾، ولم يقل: "كمثل مطر"؛ لأن المطر لا يأتي في القرآن إلا في موضع العذاب والانتقام، بينما الغيث يكون في موضع الخير والنماء، وهذا ما يتمناه الزراع.

الصيّب: الصيّب بتشديد الياء وكسرها السحاب ذو الصوب، وهو الغيث، وبابه نصر[28].

---

[25] الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج1، ص20.

[26] الحموى، **معجم البلدان**، ج3، ص200.

[27] الرازى، **مختار الصحاح**، (فصل الغين إلى النون)، ص65.

[28] الرازي، **نفس المصدر**، (فصل الصاد، والضاد، والطاء)، ص34.



والصيب المطر الغزير، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم وصفًا لحال المنافقين في إظهار الإيمان، وما هم بمؤمنين في الحقيقة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:17-19].

هذا تشبيه حال بحال، وقد فسر ابن قيم الجوزية ذلك بقوله: "... فضرب الله للمنافقين بحسب حالهم مثلين، مثلا ناريًا، ومثلا مائيًا لما في النار من الإضاءة والإشراق والحياة، فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة، ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيب وهو المطر الذي لا يصوب، أي ينزل من السماء، فيه ظلمات ورعد، وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت زواجر القرآن، ووعيده، وتهديده، وأوامره، ونواهيه، وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحاله كحال من أصابه المطر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوره جعل أصابعه في أذنيه وغمض عينيه من صاعقة تصيبه"[29].

الوابل: وهو المطر الشديد، وبابه وعد، قال ابن أبي بكر الرازي: "الوابل المطر الشديد، وقد وَبلت السماء من باب وعد"[30]. والذي يعضد قول صاحب مختار الصحاح قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:16].

وقد وردت لفظة "وابل" في أكثر من موطن في القرآن، كقوله تعالى وصفًا لحال المنافقين في الإنفاق: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:265].

لقد شبه النظم الجليل الذي ينفق الشيء الكثير بالوابل، وشبه الذي ينفق الشيء القليل بالطل. وفي بيانه يقول الإمام ابن قيم الجوزية: "والطل مطر صغير القدر يكفيها لكرم منبتها تزكو على الطل وتنمو عليه، مع أن في ذكر الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل، فمنهم من يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً، والله لا يضيع مثقال ذرة"[31].

---

[29] ابن قيم الجوزية، **أمثال القرآن**، ص53-55.

[30] الرازي، **مختار الصحاح**، (فصل الواو)، ص456.

[31] ابن قيم الجوزية، **أمثال القرآن**، ص116.



الطل: الطّل بفتح الطاء مصدر "طَلّ الإبل،" إذا ساقها سوقًا عنيفًا[32]، والطل هو المطر الضعيف، وطلت الأرض إذا نزل عليها الطل[33].

وقد ورد "الطل" في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:265]، وقد تقدم بيان ذلك في كلامنا على الوابل، ففي هذا التعبير تأكيد لمدح هذه الربوة، بأن الطل يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين، وذلك لكرم الأرض وطيبها. قال المبرد وغيره: "تقديره فطل يكفيها"[34]، وقال الماوردي: "وزرع الطل أضعف من زرع المطر، وأقل ريعًا، وفيه وإن قل تماسك ونفع"[35].

الودق: الودق بفتح الواو وسكون الدال، المطر عامة، سواء أكان سديدًا أم غزيرًا، فكل ما نزل من ماء السماء هو "ودق". قال الخليل: "الودق: المطر كله، شديده، وهينه"[36].

وينسجم هذا القول وما انتهى إليه كثير من المفسرين من أن الودق هو المطر عامة دون تعيين وصفه سواء أكان شديدًا أم هينًا، وهو المرتضى كذلك عندنا هنا. وذلك عند تفسيرهم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور:43].

فالودق هنا المطر عامة[37]. غير أن الخليل بعد أن قال ما قال، ورأي معنى هذه الكلمة في دواوين العرب انتهى إلى القول بأن الودق هو الشديد من المطر دون هينه لانعقاد الإجماع عليه. قالت العرب: "حرب ذات ودقين،" أي شديدة تشبه بسحابة ذات مطرتين شديدتين[38].

الماء: أصل "ماء": "ماه"، فالهمزة مبدلة من الهاء في موضع اللام[39]، والأصل "مَوَهٌ" تحركت الواو وفتح ما قبلها، فقلبت ألفًا فصارت "ماهٌ"، ويجمع على أمواه، ومياه.

وقد وردت "ماء" في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مرادًا بها المطر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:99]. قال الواحدي في البسيط نقلاً عن ابن عباس ﷺ أن الماء هنا أريد به

---

[32] قطرب، **المثلث**، (طلل)، ج2، ص82.

[33] قطرب، **نفس المصدر**، ج2، ص82.

[34] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج3، ص317.

[35] الماوردى، **النكات والعيون**، ج1، ص340.

[36] الخليل، **العين**، (و د ق)، ج5، ص198.

[37] الزمخشري، **الكشاف**، ج4، ص311؛ وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج18، ص261.

[38] الخليل: **العين**، (و د ق)، ج5، ص198.

[39] ابن منظور: **لسان العرب**، (موه)، ج5، ص198.



المطر[40]، وهو ما انتهى إليه غيره من المفسرين[41].

الحسبان: الحسبان بضم الحاء، هي العذاب والبلاء[42]. وقد جمع أقوال العلماء في ذلك الإمام القرطبي في تفسيره فقال: "ذهب أبو عبيدة والأخفاش والقتبي إلى أن الحسبان هي مرامي السماء، واحدتها حسبانة، وقال ابن الأعرابي: الحسبانة السحابة، والحُسبانة الوسادة، والحسبانة الصاعقة. وقال أبو زياد الكلاولي: أصاب الأرض حسبان، أي جراد، والحسبان أيضًا الحساب"[43].

وبناء عليه، فالحسبان لفظ مشترك لهذه المعاني المتعددة. قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:5]، وقال تعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف:40]، أي عذابا وبلاءًا من السماء.

قال ابن منظور: "والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فتصبح صعيدًا زلقًا﴾، أي ترابًا أملس لا نبات فيه. وهذا القول مناسب للآية، فكأن الله تعالى أرسل على تلك الجنة عذابًا من السماء يتمثل بمطر شديد تصحبه عاصفة هوجاء كسرت الأشجار والنخيل، فحولتها إلى أرض ملساء لا نبت فيها فأصبحت خاوية على عروشها كما وصفها الله تعالى"[44].

هذا المطر من حيث وروده على الحقيقة، أما كونه عن طريق المجاز ففي بضع كلمات، وذلك من باب التوسع على النحو الأتي:

السماء: عرف اللغويون السماء بأنها كل ما علانا، ولذلك قيل لسقف البيت سماء[45].

وترد السماء في العربية مرادًا بها ثلاثة معان، الأول منها: هو كل ما علاك، والثاني: سقف البيت، والثالث: المطر. فهي إذن مشترك لهذه المعاني. فإذا كانت بمعنى العلو أنثت في لغة العرب[46]؛ لأنها جمعت "سماءة"[47] أو جمع "أسمية"

---

[40] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج13، ص112.

[41] محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج7، ص642؛ وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج7، ص398.

[42] ابن منظور، **لسان العرب**، (حسب)، ج9، ص866.

[43] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج10، ص408.

[44] ابن منظور، **لسان العرب**، (حسب)، ج9، ص867.

[45] الخليل، **العين**، (سمو)، ج7، ص319، وابن أبي بكر الرازي، **مختار الصحاح**، (فصل السين)، ص605

[46] مجلة المورد، **الأزمنة لقطرب**، مج13، ج3، ص113.

[47] ابن منظور، **لسان العرب**، (سمو)، ج24، ص2108.



و"سماوات"[48]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:11]، قال ﴿هِيَ﴾ ولم يقل (هو)، وقال ﴿لَهَا﴾ ولم يقل (له)، فدل على أنها مؤنث. أما إذا كانت السماء بمعنى "سقف البيت" فقد قال الخليل –كما ورد عن سيبويه– أنها تذكر، واحتج بقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل:18]، فقد كان يفسر ذلك في ضوء نظام العربية على منهجه. كذا في الكتاب[49].

أما إذا كانت السماء بمعنى المطر ذكّر. قال ابن خالويه: "والسماء إذا أريد به المطر فهو مذكر، وجمعه سُمَيّ، وأسمِية، تقول العرب: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، أي المطر"[50].

وقد ورد السماء بمعنى المطر في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود:52]، أي المطر متتابعًا، أي إن هذه السحب تدر مطرًا متتابعًا ينبت الخير[51]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:31]، أي من السماء من مطر وثلج ونحوه[52].

الرزق: بكسر الراء هو ما ينتفع به، وهو العطاء[53]، أو هو ما يعتمد عليه. قال الخليل: "أرزق الله يرزق العباد رزقًا، اعتمدوا عليه، وهو الاسم، أخرج على المصدر، وقيل: رَزْق على الأصل، وهو المصدر"[54].

وقد يسمى المطر رزقًا من باب المجاز. ففي اللسان قوله: "جعل الرزق مطرًا؛ لأن الرزق عنه يكون"[55].

وقد ورد "المطر" بهذا المعنى في النظم التنزيلي، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر:13]. قال أبو السعود: "أي سبب الرزق، وهو المطر، وإفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر"[56].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ [الجاثية:5]، فإطلاق الرزق على المطر مجاز مرسل، علاقته المسببية، وهي

---

48 الرازي، **مختار الصحاح**، (فصل السين)، ص605.

49 سيبويه، **الكتاب**، ج2، ص47.

50 ابن خالويه، **إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**، ص109.

51 الطباطبائي، **تفسير الميزان**، ج1، ص272.

52 المصدر نفسه، ج2، ص255.

53 الرازي، **مختار الصحاح**، فصل الذال والراء، ص367.

54 الخليل، **العين**، (رزق)، ج5، ص89.

55 ابن منظور، **لسان العرب**، ج19، ص1637.

56 أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج5، ص10.



أن يكون المنقول عنه مسببًا وأثرًا لشيء آخر، وذلك فيما ذكر لفظ المسبب وأريد به السبب"[57].

لرحمة: الرحمة بفتح الراء وسكون الحاء: الرقة والتعطف، وتراحم القوم إذا رحم بعضهم بعضًا[58]. وسمي الغيث رحمة؛ لأنه تعالى برحمته ينزل من السماء[59].

وقد وردت "الرحمة" في القرآن الكريم مرادًا بها المطر في عدة مواضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:56]، فالرحمة هنا هي المطر، والدليل على ذلك قوله: ﴿ قَرِيبٌ﴾، ولم يقل "قريبة". وقد خرجت هذه الكلمة من معناها الحقيقي، وهو الرقة والتلطف إلى معنى مجازى، وهو المطر اتساعًا في اللغة، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:48]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم:46]، جاء في تفسير الميزان: "﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾، أي تبشر بالمطر"[60].

هذا، وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة وردت فيها الرحمة بمعنى المطر لا يمكن لمثل هذ البحث القصير استيعابها، ولهذا نكتفي هنا بهذه المواضع.

الرجع: وهو مصدر من رجع يرجع رجْعًا من باب فتح. وللفعل مصادر أخرى غير هذا، وهو الرجوع، والرجعى، والرجعان، والمرجع، والمرجعة[61]. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق:8]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق:11]، ويقال ذات النفع[62]، وهو المطر. قال الرازي نقلا عن الزجاج: "الرجع هو المطر؛ لأنه يجيء ويتكرر. واعلم أن كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح في أن الرجع ليس اسمًا موضوعًا على المطر، بل سمي رجعًا على سبيل المجاز"[63].

---

[57] القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص156.

[58] الرازي، **مختار الصحاح**، (فصل الراء)، ص476.

[59] ابن منظور، **لسان العرب**، (رحم)، ج 19، ص1613.

[60] الطباطبائي، **تفسير الميزان**، ج21، ص471.

[61] ابن منظور، **لسان العرب**، (رجع)، ص 1591.

[62] الرازى، **مختار الصحاح**، (فصل الراء)، ص305.

[63] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج31، ص133.



المبحث الرابع

مراعاة جزالة النظم التنزيلي يصحح الأخطاء التفسيرية في تناول آيات المطر

كثرت الأقوال في المنزل من عند الله تعالى جهة السماء سواء أكان المنزل منه رحمة أم عذابًا كثرة آياته، إلا أن البعض منها لا يخلو من خطأ في التفسير، ففي البعض منها قول بأن في الهواء بحرًا معلقًا ما بين السماء والأرض، ومنه نزلت الحجارة على قوم لوط عذابًا لهم، وذلك عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:82][64]، وقول[65] بأن في السماء جبالاً من برد –على الحقيقة–[66]. جاء منها السجيل المنضود على قوم لوط، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور:43]، كذا في تفسير الإمام القرطبي نقلاً عن عكرمة وغيره. وفي تفسير الإمام الطبري عن ابن أبزى أن "البحرين" في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:20] تعني وجود بحر في السماء وبحر في الأرض[67].

وبناءًا عليه، يجب تنزيه النظم الجليل عن الحمل على أمثال هذه الأقوال؛ لأنها تخل بفخامة المعاني التنزيلية، فإن ﴿مِن﴾ هنا تعنى جهة السماء، لا السماء نفسها. وقد تولى دحض مثل هذه الشبهات وبيان ما هو المرتضى في ذلك من تفسير بديع الزمان سعيد النورسي، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة:19].

وها هو نص كلامه: "وان ذكر ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ مع بداهة أن المطر لا يجئ الاّ من جهتها إيماءًا بالتخصيص إلى التعميم، وبالتقييد إلى الإطلاق نظير التقييد في ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:38]، أي مطبق آخذ بآفاق السماء. وما استدل بعض المفسرين بلفظ من السماء هنا وفي آية ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور:43] على نزول المطر من جرم السماء حتى تخيل البعض وجود بحر تحت السماء، فنظر البلاغة لا يرى عليه سكةَ الحقيقة. بل المعنى: من جهة السماء"[68].

---

[64] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج9، ص82.

[65] كابن جزي. انظر: ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، ج4، ص51.

[66] قلنا ذلك؛ لأن بعض المفسرين أرجعوها إلى المجاز دون الحقيقة، فالتقدير عندهم هنا "وينزل من السماء قدر جبال، أو مثل جبال من برد إلى الأرض." وفي تفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي: "وينزل سبحانه من جهة السماء قطعًا من السحاب كأنها القطع من الجبال في عظمها وضخامتها." انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج12، ص289؛ وطنطاوي، **التفسير الوسيط**، ج10، ص138.

[67] طبارة، **روح الدين الإسلامي**، ص200.

[68] النورسي، **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، ص138.



المبحث الخامس

المرتضى مما انتهى إليه تقرير العلوم الكونية الحديثة في نزول المطر بمنظار نظم آياته القرآنية

بعد أن سقنا لك أيها القارئ الكريم آيات التنزيل الجليل في المطر والألفاظ المعبرة عنه من حيث كونها على الحقيقة أو المجاز قد يتسأل المستفهم –وهو حقه– فيقول: هذه الآيات التي ذكرتها تتحدث عن نزول الامطار، ولكن كيف تأتي الأمطار من البحر المالح؟

وللأجابة عن هذا أقول: إنه من بين آيات المطر في القرآن الكريم آية واحدة في سورة النور تجلى حقيقة نزول المطر بصورة واضحة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور:43].

فكل طور من أطوار المطر في نزوله من السماء تأخذه أوضاع النظم الجليل بألفاظها الجزل ومعانيها الفخر وتنسجه سبكًا محكمًا يشع من خلاله فخامة كلام رب العباد وعظمته.

وإليك ما سطره قلم مكي بن أبي طالب: "قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾، يسوق السحاب حيث يريد، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾، أي يؤلف قطعه، أي يلصق بعضها إلى بعض ويقربها؛ لأن السحاب يحدث قطعًا قطعًا. قال عبيد بن عمر: "الرياح أربع: يبعث الله الريح الأولى فتقمّ الأرض قمًّا، ثم يبعث الثانية فتنشئه سحابًا، ثم يبعث الثالثة فتؤلف بينه فتجعله ركامًا، أي متراكمًا بعضه على بعض، ثم يبعث الرابعة فتمطره،" ومعنى ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي من خلال السماء"[69].

ومن هنا، فالآية هذه تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها، وما عرف علميًا في العهد الأخير من السحب الممطرة تبدأ على هيئة عدة خلايا أو وحدات من السحب التي تثير تيارات الهواء الصاعدة فتتحد مكونة السحب الركامية الممطرة (condensation)، وسميت هذه السحب بالركامية لتراكمها في طبقات بعضها فوق بعض، والرياح الصاعدة من الأرض تحمل شحنة كهربائية موجبة (electric charge: proton)، وباتحادها مع الشحنة الكهربائية الموجودة في الفضاء يتكون مجال كهربائي بسبب تحول البخار (evaporation) إلى قطرات دقيقة من الماء تكبر شيئا فشيء إلى أن تسقط الأمطار (precipitation)، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي

---

[69] مكي بن أبي طالب، **الهداية إلى بلوغ النهاية**، ج8، ص5130.



سَحَابًا﴾، أي أن الله يسوق السحاب برفق بواسطة الرياح ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾، أي يجمع بعض السحاب إلى بعض إلى أن يصير سحبًا ركامية ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي فترى المطر يخرج من خلال هذه السحب.

ومن مظاهر السحب الركامية أنها تنمو في الاتجاه الرأسي، وقد تصل إلى علو كبير جدًا وتظهر لمن ينظر إليها من بعد كالجبال الشامخة، ولا يعرف التشابه بين السحب والجبال إلا من يركب طائرة تعلو به فوق السحاب فيراها من فوقه كأنها الجبال وهذا ما وصفه القرآن للسحب الركامية بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾، وإذا علمنا أن الطائرة لم تكن في عصر نزول القرآن الكريم، فإذن في وصف السحب الركامية بالجبال لهو إعجاز علمي للقرآن.

هذا، وإن القرآن الكريم ذكر أن السحب الركامية تجود بالبرد ﴿مِن بَرَدٍ﴾. وهذه حقيقة علمية أخرى يعلنها القرآن. وقصة نشوء البرد هو أنه بعد أن تتكون نقط المطر تعمل تيارات الهواء (atmosphere current)الصاعدة على حملها إلى مناطق التجمد في ارتفاعات شاهقة تنخفض فيها درجة الحرارة إلى 40 أو 50 تحت الصفر، وتلك مرحلة تتحول فيها نقط المطر إلى ثلج كما تجمع حولها أغشية من بلورات الثلج التي تحولت إلى جليد، وهذه المكونات الثلجية يجتمع بعضها ببعض عن طريق التصادم فتنمو ويزداد حجمها بحيث لا يقوى الهواء على حملها فتسقط إلى الارض على شكل البرد.

وهناك حقيقة علمية أخرى ذكرتها الأية وهي أن السحب الركامية هي وحدها التي يمكن أن يتولد منها البرق كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، والبرق ما هو إلا اشرارة كهربائية هائلة(electric spark)، ولكن ما مصدر هذه الشرارات الكهربائية الهائلة؟ إن مصدرها هو شحنات الكهرباء في نقط الماء التي داخل السحب، وكذلك الهواء الذي من حولها، فإن نمو البرد داخل السحب يصحبه حتمًا انفصال شحنات كهربائية عظمى (big electric charge)

، وتنشأ عن هذه الشحنات ضغوط كهربائية لا تزال تتراكم وتزداد حتى لا يقوى الهواء على عزلها فيتم التفريغ الكهربائي بين الشحنات المختلفة في السحابة نفسها، أو بينها وبين سحابة أخرى قريبة، أو حتى بين السحابة والأرض. ومن أضرار البرق الإصابة بالعمى المؤقت، ولعل الطيارين هم أكثر الناس تعرضًا لذلك، وخصوصًا عند تحليقهم داخل السحب الركامية.



وليس من اللازم أن يتساقط البرد والمطر بمجرد تكونه؛ إذ ربما يحول تيار الهواء الصاعد دون نزوله في مكان معين حتى إذا ما ضعف هذا التيار هوى المطر أو البرد على هيئة زخات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾. كذا منقول بتصرف من كتاب روح الدين الإسلامي[70].

انظر أيها القارئ الكريم! كيف كان النظم التنزيلي يضرب بحجر واحد عصافير، فكم من حقائق علمية انتهت إليها العلوم الكونية الحديثة، والقرآن الكريم قد نوه إليها، بل ذكرها بأروع ما كان وبصورة تجلى حقيقة الأمر. والأمثلة التي بين أيدينا خير دليل على ذلك. والحقائق العلمية إن هي إلا جند من جنود الرحمن الرحيم في جعل إعجاز القرآن الكريم العلمي أكثر وضوحًا في عصر العلم والتكنولوجي، وهو العصر الذي لا يستطيع أن يكذب بصدقية القرآن في كلامه ككتاب سماوي سلم من أيدي التحريف العابثة بقدسيته.

فحمدًا لله تعالى على جعل قرآنه الكريم خالدًا في ذكر التاريخ ومشعًا مزداهرًا للقلوب العاشقة إلى الأسرار القدسية والأنوار الإلهية الباعثة على الإيمان.

المبحث السادس

تقرير عدل المولى في توزيع المياه على الأرض ونسبتها المقررة في ضوء نظم آيات المطر

أقر العلم الجغرافي والعلم الطبيعي مؤخرًا بعدل المولى ﷻ في توزيع المياه على الأرض ونسبتها المقررة، وأنه لا تجور سنة على أخرى في مقدار مطرها. وذلك في دراسة أجراها الدكتور شاهر جمال آغا أستاذ الجغرافيا الطبيعية في جامعة دمشق، وأوضح أن الإعجاز الإلهي والنبوي الشريف، أخبرنا قبل ما يزيد عن 1400 سنة أن ما يصل إلى الأرض من هطول محسوب بدقة ولا يتغير وسطياً من عام إلى آخر، وهو ما يعبر عنه في العلوم الجغرافية والعلوم الطبيعية بالتوازن الرطوبي والتهطالي (Moisture equilibrium).

واستدل في ذلك بالحديث النبوي عن ابن عباس ﵄ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من عام أمطر من عام، ولكن يصرفه حيث يشاء، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان:50]»[71]. وكذلك ما ورد في قوله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف:11]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: 18].

[70] طبارة، **روح الدين الإسلامي**، ص53.

[71] أخرجه الحاكم في **المستدرك**، ج2، ص475، رقم3577.



دليل الإعجاز:

أوضحت الدراسة أن الله خص الأرض بغلافها الأرضي الجغرافي الذي تميزت به عن أترابها من الكواكب الشمسية وسواها المعروفة حتى الآن، وتتفاعل أجزائه بفعالية كبيرة وباستمرار مع بعضها البعض، وذلك عبر النقل المتبادل للطاقة والمادة، مما يجعل من الغلاف الأرضي الجغرافي كتلة طبيعية واحدة متكاملة، وللماء الدور الحاسم في إتمام عمليات النقل والتبادل لما لها من سمات وخصائص فيزيائية وكيميائية ينفرد بها.

وأضافت أن الحديث أثبت الكم المحدود من الهطول السنوي بقوله: «من عام أمطر من عام»، وأما قوله ﷺ: «يصرفه حيث يشاء» تعنى توزيع الهطول على سطح الأرض توزيعاً حدده رب العزة بشكل يحقق التوازن النطاقي والإقليمي على سطح الأرض، والتوازن الرطوبي المنطلق لتحقيق مختلف أشكال التوازن المادي والطاقي الأرضي، وعند الله كل شيء بمقدار ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:8].

واستدل صاحب الدراسة بظاهرة الدورة الرطوبية على سطح الأرض على أن مجموع ما يتبخر على سطح الأرض يعادل كمية الهطول السنوية فوقها، ما يثبت بدوره مصداق المعيارية والمقدارية المشار إليها في الآيتين الكريمتين السابقتين وفي الحديث الشريف كذلك.

سر التوازن الاشعاعي:

أكدت الدراسة أن هذا التوازن يحدث نتيجة للتوازن الإشعاعي الحراري الأرضي الجوي، وأوضحت أنه عندما تبلغ أشعة الشمس إلى سقف الجو ينعكس منها ما نسبته 31% مباشرة إلى الفضاء الخارجي وما تبقى من الأشعة 69% يدخل الغلاف الجوي فيمتص منه قرابة 17% والباقي52% أي فإنه يمثل مجموع الأشعة المباشرة والمنتشرة الواصلة إلى سطح الأرض، والتي ينعكس منها إلى الجو قرابة 4%، وهكذا يتبقى من الأشعة ما يعادل 48%، ونجد أن 18 %يصرف إشعاعاً أرضياً فعالاً ذاتياً إلى الجو، وما تبقى أي 30% فإنه يعتبر المخزون الأرضي الإشعاعي الفعلي الذي يتحول جزء منه إلى طاقة حرارية تعمل على تبخير المياه على اليابسة والمحيطات وبنسبة 22% من مجموع الأشعة الممتصة فعلياً من قبل سطح الأرض، أما ما تبقى وهو 8%، فإنها تصرف على عمليات التبادل الحراري الطاقي بين الأرض والجو.



هذه الطاقة التي تعادل بالنسبة لسطح الأرض ماء ويابسة (59) ك. كالوري وسطياً تكفي على مدار السنة تبخير ما مقداره 577 ألف كم3 من المياه السائلة من على سطح الأرض، وحسب قوانين التوازن الرطوبي آنفة الذكر، ستتحول المياه المتبخرة كاملاً إلى مياه سائلة ثانية (هطول) أي بمقدار 577 ألف كم3[72].

هذا، صحيح أن كل شيء مقدر عند الله تعالى كما نطقت به الآية الكريمة السالف ذكرها، وأن الله يصرف الأمطار كيف يشاء، إلا أن تعيين المقدار في ذلك في علم الله تعالى، وعملية الحساب الدقيقة التي رأيتها أيها القارئ الكريم إن هي إلا من حسابات البشر، والعلم بصحتها من عدمه عند الله تعالى.

ومن هنا، لما كان هذا التقرير لم يتعارض وفخامة النظم القرآني فلا بأس من قبوله كتفسير علمي للنص الكريم، إلا أنه لم ندّعِ بأنه الأصح في ذلك، وليس هناك كلام أخر بعده؛ لأنه قد يأتي ما هو أدق منه، حتى لا نحمل النظم القرآني على ما لا يستحقه من معنى. وذلك لأن التطورات في العلوم على توسع مستمر كلما تمر الأيام، والحقائق القرآنية ثابتة لا تتغير ولا تستبدل أبد الآبدين. هذا، والله أعلم.

[72] انظر هذه المقالة في: http://www.akhbarona.com/religion/79344.html



المصادر والمراجع

1. **القرآن الكريم**.
2. الخولي، د. إبراهيم محمد عبد الله، **مكان النحو من نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني**، (القاهرة: دار البصائر، ط1، 2008م).
3. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، **مختار الصحاح**، (مصر: مطبعة الكلية، ط1، 1329هـ).
4. ابن خالويه، الحسين بن أحمد، **إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**، (دار الكتب المصرية، 1941هـ).
5. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، حققه وقدم له الدكتور رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1987م).
6. البطليوسي، عبد الله بن محمد بن سيد، **المثلث**، تحقيق الدكتور صلاح مهدي على الفرطوسي، (العراق: وزارة الثقافة والإعلام العراقية: دار الرشيد للنشر، 1983م).
7. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (الدار التونسية للنشر، 1984م).
8. ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، (القاهرة: حسن عباس زكي، 1419هـ).
9. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **أمثال القرآن**، تحقيق الدكتور موسى بناي علوان العكيلي، (بغداد: مكتبة الزمان، 1407هـ/1987م).
10. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت.).
11. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، تحقيق الدكتور السيد أحمد صقر، (مصر: دار المعارف، د.ت.).
12. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط7، 1418هـ/1998م).
13. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد، **المستدرك على الصحيحين**، مع تعليق الإمام الذهبي، (القاهرة: دار الحرمين للطباعة، ط1، 1417هـ/1997م).
14. الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، **معجم البلدان**، (بيروت: دار صادر، 1397هـ/1977م).
15. القزويني، الخطيب محمد بن عبد الرحمن، **الإيضاح في علوم البلاغة**، (بغداد: مكتبة النهضة، د.ت.).
16. الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، اعتنى به فواز أحمد زمرلي، (بيروت: دار الكتاب العربي،1999م).



17. الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. (القاهرة: مكتبة دار التراث، ط3، 1984م).

18. الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وغيره، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 1998م).

19. سيبويه، عمرو بن بشر بن عثمان، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام محمد هاورن، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408هـ/ 1985م).

20. الشريف الجرجاني، **التعريفات**، (بيروت: مكتبة لبنان، 1985م).

21. طبارة، عفيف عبد الفتاح طبارة، **روح الدين الإسلامي**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط28، 1993م).

22. الطباطبائي، السيد محمد حسين، **تفسير الميزان**، (بيروت، د.ت.).

23. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، (دار هجر للطباعة، ط1، 1422هـ/2001م).

24. السامرائي، أ.د. فاضل صالح، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، (القاهرة: شركة العاتك لصناعة الكتاب، ط1، 2006م).

25. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، (بغداد: نشر دائرة الشؤون الثقافية العامة، طبع دار الرشيد، 1405هـ/1985م).

26. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م).

27. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، 1423هـ/2003م).

28. محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، (القاهرة: دار المنار، ط2، 1366هـ/1947م).

29. الطنطاوى، محمد سيد، **التفسير الوسيط**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1997م).

30. شيخون، د. محمود السيد، **الإعجاز في نظم القرآن**، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1977م).

31. المرتضى الزبيدي. محمد بن محمد. **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق إبراهيم الترزي، (الكويت: من منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000م).

32. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، **النكت والعيون**، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.).

33. أبو طالب، مكي، حموش بن محمد بن مختار، **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن، وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**، (الشارقة: جامعة الشارقة، ط1، 1429هـ/2008م).

34. الحنين، ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر، **النظم القرآني في آيات الجهاد**، (الرياض: مكتبة التوبة. ط1، 1996م).



35. النورسي، بديع الزمان سعيد النورسى، **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، تحقيق محمد إحسان قاسم الصالحى، (القاهرة: دار سوزلر، ط3، 2002م).

36. النورسي، بديع الزمان سعيد النورسي، **المعجزات القرآنية**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: مكتبة سوزلر، ط2، 2009م).

37. النورسي، بديع الزمان سعيد النورسي، **المكتوبات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، (القاهرة: مكتبة سوزلر، ط6، 2011م).

38. http://www.akhbarona.com/religion/79344.html

